مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد10 / العدد: 01 (2022)، ص 949- 974

فريدريك نيتشه والنقد الفلسفي للعلم الحديث

Friedrich Nietzsche and the Philosophical Criticism of Moderne Science

د. مجكدود ربيعة[1]

[1] جامعة محمد بوضياف المسيلة- الجزائر

rabiaa.medjekdoud@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/07 تاريخ القبول: 2022/01/09 تاريخ النشر:2022/01/23

ملخص

يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء على طبيعة النقد النيتشوي للعلم الحديث، إن البحث في خصوصية التساؤل عن ماهية العلم لا يمكن فصله عن نقده للحداثة. فالعلم قد وعى بذاته ونحت مفاهيمه داخل علوم القرن السابع عشر إلى غاية القرن التاسع عشر. صحيح أنه أدّى خدمات جليلة إلاّ أنّ الصورة التي يكونها نيتشه عن العلوم الحديثة هي التالية:. ذات أعراض ميتافيزيقية وأخلاقية ودينية لم تتخلص منها، وتفاسيرها الميكانيكية للأشياء، ووهم الموضوعية بهذا حاول إخضاع العلوم الحديثة إلى مقاربته النقدية، وبهذا أدرك أن العلم كرؤية للعالم يهدم دون أن يبدع قيما جديدة، ولا يخلق أي قيمة، وبالتالي فهو لا يمكن أن يرسم طريقا نحو حضارة سامية.

كلمات مفتاحية: النقد، العلم الحديث، المنهج العلمي، العلم المرح، الفلسفة، الفن

Abstract:

This article aims to shed light on the nature of the Nietzschean criticism of modern science. Research into the specificity of the Nietzschean question about the nature of science cannot be separated from his criticism of modernity, as science has become aware of itself and its concepts within the

sciences of the seventeenth century until the nineteenth century. It is true that he performed great services, but the picture that Nietzsche forms about modern science is the following: With metaphysical, moral and religious symptoms that she did not get rid of, and her mechanical interpretations of things, and the illusion of objectivity with this, he tried to subject modern science to his critical approach, and thus he realized that science as a vision of the world destroys without To create new values, and not to create any value, and therefore it cannot draw a path towards a sublime civilization.

Keywords: Criticism, modern science, scientific method, the gay science philosophy, art

---

المؤلف المرسل: مجكدود ربيعة

1. مقدمة

تعتبر الحداثة حصيلة ثقافية في الفكر الغربي، لقد تأسست على مفهوم العقل، أو العقل الماهوي الذي خلق شعور الاكتفاء بالذّات، فكان بمثابة سلطة لا تعلوها سلطة فوقها ، وهذا الحكم ينطبق أساسا على القرن السابع عشر الذي كان يعبد العقل بشكل رئيسي، ومبادؤه هي وحدها التي يجب أن يقوم عليها بناء الجماعة الإنسانية في مختلف ميادينها، سواءا في السياسة أو في الأخلاق أو في المعتقدات أو في النظرة الكونية، حيث غدا العلم أساس الوجود، وذلك انطلاقا من الذاتية الديكارتية.

حيث جرت فيه إعادة المراجعة الشاملة للمسلمات الكبرى في الفكر، وإعادة رسم خريطة جديدة عزلت كل ما هو أسطوري، ديني، وخرافي، وجعلته خارج الدائرة.

فالحداثة إذن، باعتبارها انفصالا عن القديم أي التحرر منه، وتأكيدا لقدرة الإنسان كذات قادرة على خلق معايير ، وقيم جديدة، وذلك بإخضاع القيم

الموروثة للمراجعة، والنقد ، وهو الأمر الذي يؤكده فريدريك نيتشه - 1844) Friedrich Nietzsche (1900 الذي حاول تعرية الحداثة من أقنعتها الزائفة ليكشف عن الفساد والانحلال، والعدمية التي تغلغلت في هاويتها المخيفة لتتردى فيها.

لذا يجب استئصال العناصر المتهالكة المتداعية، وتضطر العناصر الصحيحة إلى أن تعيد تقويم نظام القيم، وتبعث آراؤه قرنا أو مئة عام من رماد العدمية التي لحقت بالفكر الغربي برمته. لذا كان قوام نيتشه هو القضاء بصورة فعالة، وهو يهوي بمطرقته على جميع الحقائق المصطنعة، والمزيفة التي لم تزد الإنسانية إلا انحطاطا تلوى انحطاط، يسائل جلّ مشاريع الحداثة بعناوينها المختلفة من السياسة، والتقنية، والعلم ، ويبدو هذا الأخير الذي وصف بالدقة ، والموضوعية قد بات إشكالية، لذا يراجعه محاولا استئصال المرض، لقطع دروب انحلاله، وعدميته. وهو ما جعل منها أرضا معرفية خصبة للدراسة، والتحليل ، والتشخيص، ومنه نتساءل: هل النقد النيتشوي للعلم الحديث ما هو إلا ضربات عمياء لمطرقة هدامة أصابت العلم خطأ، أم هو حدس نيتشوي، لترشيده، وتقويمه من أجل ايجاد علم جديد بديل للعلم الحديث؟

2. المنهج العلمي كسيكولوجية هدامة

إن إطلاع نيتشه على العلوم الحديثة وسعيه المتواصل إلى تحصيلها، إنما هو نتيجة اهتمامه بالعلم باعتباره جزءا من الحضارة. وما يعنيه بعبارة العلم إنما هو العلوم الطبيعية، تلك التي تسمى موضوعية، كالفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا، والرياضيات، وما يجمع بين هذه العلوم هو مفهوم العدد، والقياس، يقول في صدد ذلك: " لقد غدت معرفتنا علمية عندما أصبحت قادرة على استعمال العدد والقياس" (Nietzsche,1948,p253) والغاية منه السيطرة على الطبيعة، ومحاولة خلق لغة رمزية مشتركة بالنسبة إلى كل الظواهر، وهي لغة

تسمح بالحساب، وبالتالي السيطرة على قوى الطبيعة، ولا يتم هذا إلا بدقة المنهج العلمي الذي يعتبره نيتشه أهم من نتائج العلم، إذ يقول في كتابه "إنسان مفرط في انسانيته" : "المنهجيات العلمية هي نتيجة للبحث لها من الأهمية على الأقل، قدر ما لأية نتيجة أخرى، لأن العقلية العلمية ترتكز على ذكاء المنهجية، ولن تتمكن نتائج العلم كلها، لو افتقدت هذه المنهجيات، أن تمنع عودة الخرافة، والبحث في السيادة مرة أخرى" (نيتشه، 2001، ص 243)، إن المنهج العلمي هو الذي يمنح نتائج العلم معناها، وهي نتائج لا يمكن أن تصمد في غياب المنهج العلمي " إنها لسعادة عميقة عارمة، يغمرنا العلم الذي يكشف أشياء تصمد أمام الاختبار، ولا تكف عن إتاحة الفرصة لاكتشافات جديدة"(نيتشه، 1993، ص 80).

إن الهدف من العلم هو النّقد حسب نيتشه من خلال منهجه، إذ يتخذه وسيلة للتشكيك بالدّين، والميتافيزيقا، والأخلاق لإبراز طابع الإشكال فيها. فهو – العلم- لا يعني اكتشاف قطاع من الواقع، بل إقامة البرهان على أن هذه المواقف الإنسانية تتسم بطابع الوهم، فنيتشه على حد تعبير أويغن فنك ليس عالما، ولا باحثا، ولا يجري تجارب على العلم نفسه، فهو يستخدم طرائق علمية في سبيل تهديم المثل الكبرى. (أويغن، 1974، ص 59)

لذا ، فالمنهج العلمي عنده يتأسس على النظرة النقدية، وطريقته في النقد كما بيّنها فنك أويغن تتمثل في ما يلي:

أولها: الانتهاء من تفسير الأعلى انطلاقا من الأدنى.

ثانيا: نقد المثل الأعلى انطلاق من الحياة والغريزة.

ثالثا: يؤكد على عظمة الوجود انطلاقا من الأشياء المغرية في إنسانيتها. (أويغن،1974، ص59).

لذا يرى كارل ياسبرس أن العلم كما يتمثله نيتشه، منهج، ولا وجود لمعرفة حقيقية إلا بواسطته، لذا حاول التفكير في قيمة العلم من زاوية المنهج. (Jaspers,1950,p147) ولا يستفاد من نتائج العلم، وإنما بمنهج العلم ذاته. إذ يقول:" لا تكمن قيمة ممارسة المرء الصارمة لعلم دقيق لبعض الوقت ، تحديدا في نتائجه، لأن هذه الأخيرة لا تمثل سوى قطرة متناهية في الصغر من بحر ما هو جدير بأن يعرف، لكن الفرد يستفيد من هذه الممارسة كسب المنهج"(نيتشه، 2001،ص143)

وبهذا، قوّض المنهج العلمي فكرة امتلاك الحقيقة، ونقده للخوارق والمطلق، والتحرر من الأفكار الجاهزة، وتجاوز القناعان المتداولة، بفضل هذا الحرث الدّقيق، أمكن للعلم الحديث الوصول إلى نتائج مذهلة، لكن يجب الإشارة إلى أن نيتشه لم يوظّف منهجا علميا، بل عدّة مناهج. باعتبار أنه " ما من منهجية علمية تكفي لوحدها كي تمكننا بلوغ المعرفة "(Jaspers,1950,p34) . لذا نجده يستخدم الجينيالوجيا، وعلم الأعراض، وعلم الوراثة، والفيزيولوجيا من أجل البحث عن القوى والإرادة التي أنتجت أوهام الميتافيزيقا، والدين، والأخلاق. (نورالدين ،2005، ص ص240-241)

نستخلص إذن، أن منهج العلم في تقديره فكر حر يتنافى مع الفكر المستعبد، إلا أنه أدرك أن:

- "العلم بوصفه مشكلا"(نيتشه، 1981، ص149) ، يهدم دون أن يبدع قيما جديدة، ولا يخلق أي قيمة، فهو لا يمكن أن يرسم طريقا نحو حضارة سامية.

- فالعلم جزء من الحداثة، والمشروع النّقدي النيتشوي يمسّ كل جوانب الحداثة بأوهامها، وفي هذا الصدد يقول: " في كلّ النّقاط الجوهرية فإنّ هذا الكتاب، هو نقد الحداثة بما في ذلك العلم الحديث، والفن الحديث، بل حتى

السياسة الحديثة...." (نيتشه،2005،ص147)، هكذا تصبح العلوم الحديثة إذن موضوع نقد.

3. المقاربة النقدية لأسس العلم الحديث

1.3 نقد الموضوعية

إذا كان الإنسان في فترة "ماقبل العلم"، يفسر الطبيعة من خلال تشبيهها بالإنسان واعتباره المركز الذي ينطلق منه كل تفسير، وهذا ما يسمى بالنزعة الأنتروبومورفية Anthropomorphe، لكن تعتبر الثورة العلمية للقرن السابع عشر كمحاولة للتحرر من الماضي، "قبل العلم" بفضل الثورة الكوبرنيكية وما أضافته عليه من رؤية جديدة للكون، من خلال التّفسير الميكانيكي للظواهر الطبيعية والإنسانية.

وهكذا حاولت العلوم الإنسانية التّحرر من التّفسير الأنتروبومورفي، وأن تجعل تفسيراتها "موضوعية" تنطلق من الكون، بدلا الإنسان للوصول إلى الحقيقة العلمية. إلاّ أنّ المقاربة النيتشوية للعلوم الحديثة تكشف لنا خداع العلوم في رفع شعار "الموضوعية"، إذ يؤكد في كتاب " إرادة القوة" أنّ "كفاحه ضد العلم يتمثل في العمل ضد ثلاث نقاط ،وهي:

1- المبالغة في الموضوعية
2- في وسائل العلم
3- نتائجه، وتفاهة أحكامه (Nietzsche,1948,p53) .

لقيت الموضوعية نقدا لاذعا عند نيتشه، لذا يحارب كل مغالطة علمية لادعائها الموضوعية ، كما أن الحكم على القيم ما هو في حقيقة الأمر إلا تعبيرا عمّا في داخلنا من تجارب ذاتية، والإقرار بالفصل بين الذّات والموضوع، باعتبار أن الذات هي التي تختار، وتؤوّل، وتحكم، مما أدّى –حسب نيتشه- إلى إيجاد النّزعة الميكانيكية التي تعد أكبر انتصارات القرن السابع عشر، وهذا الفصل ليس إلاّ

تعبيرا عن ارادة نافية وحطّ من قيمة الجسد، والغرائز، لذا رفض هذا التمييز- بين الذات والموضوع- فيقول: "ليس ما يشغلني التّعارض بين الذات و الموضوع ، وذلك بعكس ذلك، ما قد حرره البعض، أدع مثل هذا التمييز لمنظّري المعرفة...لأننا بعيدون على أن نعرف بما فيه الكفاية، كي نسمح لأنفسنا بالقيام بمثل هذا التمييز."(Nietzsche,1948,p90)

فالعلم في نظره خلاصة نتاج إنساني في جوهره، يوضح الشابي أن نيتشه لا ينتقد لاحتوائه على هذه الصفة، وإنما لعدم الاعتراف بها (نورالدين ،2005،ص240-246). فالعلماء لا يدركون أنهم يفسرون العالم انطلاقا من زاوية نظرهم الإنسانية. وبذلك فعلوا ما فعله الفلاسفة دوما، لقد أرادو تفسير الكون انطلاقا مما هو واضح بالنسبة إليهم، ومما اعتقدوا وضوحه وبداهته وسهولة إدراكه أحيانا إذ انطلقوا أحيانا من الفكر أو الروح، وأحيانا أخرى من الإرادة، أو التمثل، أو العين.

يتضح من كل هذا، أن العلم يشتغل على نحو ما كان الإنسان يفعل دوما وهو: تسخير جزء من ذاته يعتبره معقولا وحقيقيا من أجل تفسير كل ما تبقى، فينتج عن ذلك أننا ندمج الإنسان في تفسير الكون، وما يعتقده العالم منطقيا ماهو إلا مجرد وهم، ويؤكد نيتشه لا يستطيع أن يتحمل هذه الكائنات المتعبة الواهنة التي تتلفع رداء الحكمة وتتصنع" النظرة الموضوعية"، حتى الإنسان الموضوعي فهو مجرّد أداة، ولنقل: إنه مرآة: وليس "غاية في حد ذاته" فهو متعود على الرضوخ لكل شيء يريد أن يعرف دون أية لذة غير تلك التي يمنحها العرف.

إذن، لاوجود لموضوعية يدركها العلم، بل إن العلم بناء إنساني قائم على المنفعة، وتلبية حاجياته.

2.3 .ارتكاسية العلوم الحديثة

يلخص نيتشه نقائض عصره في عبارة انكار الحياة La Négation de la vie وتمثل حملته الهائلة بكلمة واحدة وهي "الإقبال على الحياة" باعتبار هذه الأخيرة المبدأ الكامن وراء الحضارة، والمعرفة، والسلوك، وهي أصل كل القيم الفكرية، والأخلاقية ، والسياسية والعلمية. فصيغة الروح الإنكارية على الحضارة الغربية وسيادة تبخيس الحياة، ويطلق عليها اسم "العدمية النافية"، بما هي انكار الحياة، والوجود.

فالقيم التي يسعى العلم إلى قيامها تزداد شيئا فشيئا ابتعادا عن الحياة، مكونة من لغة، وعالم على هامش العالم الذي نعيش فيه. لذا اجتاح الحياة وحطّ من منظومتها الأصيلة، وأصبح خطرا على الحياة، وشكلا من أشكال العدمية المدمرة، ومن هنا نستشف المنزلة الملتبسة للعلوم الحديثة حيث تتكثف فيها أشكال العدمية الميتافيزيقية، والدينية، والأخلاقية، إذ تدّعي انفصالها عن كل ذلك، ولكنّها في الحقيقة تتأسس عليه وبشكل لاواع.

1.2.3. العلم الحديث وأعراضه الميتافيزيقية

يدّعي العلم الحديث تجاوز الميتافيزيقا، لكن في حقيقة الأمر هو غير ذلك، مازال سجينا لتلك الميتافيزيقا. يشخص نيتشه هذه المسألة في مؤلفه "أصل الاخلاق وفصلها"، إذ يقول :"هكذا يظل الاعتقاد الميتافيزيقي أساسا يستند إليه إيماننا بالعلم، نحن أيضا بدورنا مفكرو هذه الأيام الذين يبحثون عن المعرفة، نحن الملحدين والمناوئين للميتافيزيقا، نحن أيضا ندلي بدورنا في حمى هذا الوطيس الذي أشعله إيمان يعود إلى عدة آلاف السنين".(نيتشه، 1981،ص143)

إنّ الماهية الميتافيزيقية للعلم الحديث تتجلى في عدة مظاهر، إذ تتراوح بين الصريح والضمني. أبرز هذه المظاهر تلك الفكرة القائلة إن العلم قادر على إدراك عالم آخر، إذ يبدو أن الإنسان الحديث لم يفعل سوى أن أحل العالم كبناء

علمي، محل عالم ميتافيزيقي، ينعت بأنه وهمي، وقد يصبح الأمر أكثر غرابة – حسب جورج مورال- عندما يريد التأويل الميكانيكي أن يكون التأويل الوحيد الممكن: العلم وحده هو الذي يدرك الحقيقة، ولكن أليست هذه النزعة تدعو إلى وحدانية التأويل، والتي تهدم الطابع المنظوري، والتعددي، والغموض اللامحدود للأشياء(Morel,1971,p185) . فما هذا سوى استعادة للوهم الفلسفي المركب داخل العلم: وهم مطلق ثابت وكلّية مغلقة.

لذا، فالعلم يفترض عالما آخر غير حقيقي غير العالم الذي نحيا فيه، كما هو الحال في الميتافيزيقا التقليدية التي تقوم على العالم الحقيقي المفارق لعالمنا الظاهري، فهذه التّفرقة –حسب نيتشه- ما هي إلاّ مظهر من مظاهر الانحطاط التي حذّر من الوقوع فيها. إذ يقول : " وليس تقسيم العالم إلى عالم ظاهري وعالم حقيقي سواء أكان على الطريقة المسيحية، أو على طريقة كانط (وهو في النّهاية ليس إلا مسيحيا خبيثا) ما هو إلاّ تعبير عن اضمحلال الحياة وسقوطها".(Nietzsche,1899,p11)

لنقل إذن أن العلم لم يخرج من إطار الميتافيزيقا التقليدية، بحيث أن المسلّمات الأنطولوجية التي ينبني عليها العلم هي ذاتها مسلمات الميتافيزيقا. ثمّة عالم حقيقي وراء العالم الظاهر، وثمّة الثّبات وراء المتغير والواحد وراء المتعدد. إنّ غاية العلم هي الحقيقة، وهو يعتقد في الحقيقة بإطلاق، والوصول إلى قيم ثابتة ولهذا السبب فالعلم لا يريد أن يسلم بالطابع الزمني والافتراضي لعمله، ويود أن يرى اكتشافاته خالدة وفي هذا الصدد كله، يقول نيتشه: " إن الإنسان... يؤكد بذلك إيمانه بعالم آخر غير عالم الحياة، والطبيعة والتاريخ، فإن كان ذلك العالم الآخر فلا يتوجب عليه أن ينكر نقيضه، أي هذا العالم، عالمنا؟ هكذا يظلّ الاعتقاد الميتافيزيقي أساسا يستند إليه إيماننا بالعلم."(نيتشه،1981،ص141).

إلى جانب ذلك، فالرّغبات الميتافيزيقية، هي التي تحرّك العلم الحديث، إن كان عمله يجد أصوله في مشاعر الخوف، والقلق، والحاجة إلى الأمن وبالتالي اليقين. وهي الحاجة التي تتمظهر على هيئة علمية وضعية. كما أننا نلاحظ أن العلو م الحديثة ترفع من مفهوم "الحقيقة" إلى مرتبة اللامشروط والمقدس، فالحقيقة هي الغاية القصوى لكل بحث، و"العالم الحقيقي" هو الهدف المطلق لكل عمل علمي. فالفيزيائيون مثلا، يعتقدون بطريقتهم في "عالم حقيقي" وفي تنسيق الذّرات التي تتجمع بضرب من الحركات الضرورية بطريقة ثابتة ، ومتشابهة لدى كل الكائنات. ولكنّ فرضية الذّرات ليست بدورها، سوى نتيجة لمفهومي " الذات" و"الجوهر" اللّذين يختزلان مفهوم الرّوح الميتافيزيقي: يجب أن يكون ثمة "شيء" تتولد عنه الفاعلية يسمى "ذرة". فهي السبيل الأخير لمفهوم الرّوح ، ويتم اختلاقها لتسيير الحساب وتحديد الأسباب.

فثمة إذن أساس ميتافيزيقي للعلوم الحديثة، و أن العلم هو الوريث اللاّواعي للميتافيزيقا، ليس نجاحه في العصور الحديثة سوى تجلّ للتتبعات القصوى للاعتقاد الميتافيزيقي، فالعلم يدّعي التخلص منها ولكن من الممكن أن يموت الإله، لكن ليس من اليسر القضاء على ظلاله.

2.2.3. العلم الحديث وأسسه الأخلاقية

يحوي كتاب "إرادة القوة " على العديد من الشذرات التي صاغها نيتشه لإبراز أن العلم لا يحتوي أفكارا من الميتافيزيقا فحسب، بل من تقييمات أخلاقية أيضا. ينزل عادة مفهوم "الحقيقة" ضمن مجال نظري هو مجال المعرفة، إنها الهدف الأعلى الذي تتجه المعرفة الإنسانية إلى تحقيقه. إلاّ أنّه يؤكد أنّ هذا المفهوم يحتاج إلى النّقد. يقول في ذلك: "فلنحدد مهمتنا على هذا النحو، ينبغي أن يحاول المرء مرة واحدة على الأقل، أن يطرح مشكلة الحقيقة على بساط

البحث"(نيتشه،1981،ص141) لذا يؤكد أنّ ما يغذي هذا المفهوم هو الأساس الأخلاقي.

وإذا ما أخضعنا "الحقيقة" للنقد الجنيالوجي، نتساءل: من يبحث عن الحقيقة؟ ماذا يريد ذلك الذي يبحث عنها؟ ماهو نموذجه؟ فكل هذه التساؤلات لم ينتبه إليها الفلاسفة، لذا يتساءل نيتشه في مؤلفه " العلم المرح" عن الحقيقة، يقول:" ما هذه الإرادة المطلقة للحقيقة؟ هل هي إرادة ألا نخدع أحدا؟ بهذا المعنى الأخير يمكن في الواقع أن نفسر إرادة الحقيقة، ويضيف قائلا : " لا تعني إرادة الحقيقة لا أريد أن أقبل بأن أنخدع، وإنما تعني أنه ليس هناك خيار آخر: " لا أريد أن أنخدع أبدا، ولا أن أخدع نفسي: ها نحن أولا على ساحة الأخلاق"(نيتشه،1981،ص141) .الأخلاق إذن هي ما يكمن وراء الحقيقة، فلفظ الخداع لفظ أخلاقي بالأساس، وعندما يتساءل نيتشه: لماذا العلم؟ يجيب: للمسألة الأخلاقية.

هكذا، فإن إرادة الحقيقة في العلم ما هي سوى الإرادة الأخلاقية، إذ يقحم الإنسان تقييماته الأخلاقية داخل الأشياء. وهذا ما نجده في " قوانين الطبيعة" باعتبار أن القانون عنده ما هو إلا علاقة صراع بين القوى فيما بينها، فالقوي يتغلب ويسيطر على الضعيف، أليس هذا خلفية أخلاقية. في هذا الصدد يقول نيتشه: " احذر الحديث عن قوانين كيميائية، فالكلمة لها خلفية أخلاقية، إنما تتعلق بالأحرى بمعاينة علاقات قوة بشكل مطلق، يتغلّب الأقوى على الأضعف باعتبار أنّ الضّعيف،

لا يستطيع إثبات استقلاليته"(Nietzsche,1948,p41) .كما أنّ "قوانين الطبيعة" تتّخذ الحقيقة على شكل نسق، لأنّ الفوضى والصيرورة بمثابة "خداع" و"شر" فليس من العدل أن يكون العالم سديما، وليس خيرا أن يكون مجال صدفة، وغياب الغاية، أليست هذه خلفية أخلاقية للمعرفة العلمية.

ولمّا كان العلم الحديث ذا أسس أخلاقية فإنه سيكون تجليا " للحقد" و"الضمير المتعب"، باعتباره قوة ارتكاسية تهيمن على الدّين، والأخلاق وتمكنه من انتصاره، ومنه فالعلم اليوم ملجأ لكل أنواع الاستياء، والارتياب، والنّدم وامتهان الذات، وتعب الضمير، إنه عين القلق الناجم عن فقدان المثال الزهدي. لذا ما أتى به العلم الحديث من اكتشافات أدى بالإنسان إلى تصغير نفسه واحتقار ذاته، والحطّ من شأنه خاصة منذ اكتشافات كوبرنيك وداروين، تّم ذلك على حساب إيمانه بكرامته، وبقيمته الفذّة التي لا مثيل لها في سلّم الكائنات، حسب داروين أنّ الإنسان منحدر من سلالة القرود.

فبهذا أصبح الإنسان حيوانا عاريا من كل كناية، ومن كل استعارة، بعدما كان بموجبه أن يكون إلها. كما أن الثّورة الكوبرنيكية أوصلت الإنسان إلى منحدر هابط، فهو يمضي ويتوغل في العدم، في الشعور المتضمن لعدمه. فكل العلوم – حسب نيتشه- بما فيها الطبيعة، والمضادة للطبيعة تعمل اليوم على تدمير احترام الإنسان القديم لذاته، واحتقاره لذاته، فتزين هذا الاحتقار في حلة أخلاقية زاهية.

3.2.3. العلم الحديث وأسسه الدينية

إن العلاقة الباطنية بين العلم الحديث والأخلاق، والميتافيزيقا، نجدها أيضا بين العلم والدّين فالفروض الأولية التي يرتكز العلم عليها هي فروض دينية. فالعلم الحديث لم ينقطع عن الايمان بالاعتقادات، واعتقاده في الحقيقة هو وليد اعتقاد ديني تاريخي في وجود إله وبأن الإله هو الحقيقة، وأنّ الحقيقة إلهية. إن العلماء هم بدورهم أتقياء شأنهم في ذلك شأن رجال الدّين، لأنّ الاعتقاد بالحقيقة هو نفس الاعتقاد الذي يؤمن به الزاّهد في وجود إله .يقول نيتشه في صدد ذلك :" نحن الذين نبحث اليوم عن المعرفة، نحن الذين هم دون إله، ما نزال نستمد نارنا من الحريق الذي أشعله اعتقاد ألفي، هذا الاعتقاد المسيحي الذي كان أيضا اعتقاد أفلاطون"(نيتشه، 1981، ص141)

العلم في جوهره يبني على الاعتقاد، فلا يوجد علم إطلاقا بدون افتراض، فهو يؤمن أولا بوصوله إلى الحقيقة، وما من شيء ضروري مثل الحقيقة وأنّ الباقي كله ثانوي، وأنّ تطور العلم ما هو إلا نتاج بالاعتقاد بها، يقول نيتشه في كتابه " العلم المرح": " لقد شجعنا تطور العلوم خلال القرون الأخيرة جزئيا معها كنا نأمل حسن فهم طيبة وحكمة الإله (هذا) سبب رئيسي لخلق عظماء الإنجليز (مثل نيوتن). جزئيا. لأننا نؤمن بالضرورة المطلقة للمعرفة، لاسيما بالرابط الأكثر باطنية بين العلم والسعادة.(هذا) سبب جوهري لخلق عظماء فرنسا (كفولتير). جزئيا لأن نمتلك وأن نحب في العلن شيئا موضوعيا، غير ضار مكتفيا بذاته، بريئا حقيقة، حيث لا يوجد للإعزاءات السيئة للإنسان على الإطلاق، سبب أساسي لخلق سبينوزا الذي باعتباره عالما كان يحسّ نفسه ربانيا"(نيتشه،1993، ص76) هذا ينطبق أيضا على ديكارت الفيلسوف العالم الذي يجعل من فكرة "الإله الضّامن" كفكرة ميتافيزيقية بمثابة أساس العلوم. سواء تعلق الأمر بإرادة فهم "الحكمة الإلهية" أو بالبحث عن " إحساس رباني أو ملاحقة "إله ضامن"، فإنّ ما يحرّك العلم الحديث هو هاجس البحث عن الطمأنينة.

حسب نيتشه إنّ العلوم الحديثة استطاعت أن تفقد الثّقة بالدّين، بما أنّ العلم اظهر نجاعة كبيرة في دراسة الطبيعة والسيطرة عليها، ذاك أمر لا ينفيه ، إلاّ أنّ ما حدث في العصور الحديثة هو أن السّبيل إلى الطمأنينة قد غدا هدف العلم ذاته، فالحقيقة العلمية مطمئنة، ولذلك يستظل الكل بظلها كما كان الأقدمون يستظلون بظل الحقيقة الدينية، وهو ما يعني أن العلوم الحديثة تهدف إلى حفظ الأمل أكثر الإمكان، وإطالة العمر أكثر الإمكان، وتحقيق حياة وثيرة في عالم مغلق دافئ، وهو يعني نوعا من الوعد بالهناء الخالد. وبالتالي، فإن هدف العلم المعاصر هو تحقيق الألم أشد ما يمكن وإطالة العمر أكثر ما يمكن وهو ما يعني نوعا من الهناء الخالد المتواضع جدا مقارنة مع وعود الدّين.

كما يمثل العلم الحديث المثل الأعلى المضاد للمثال الزّهدي، وذلك من حيث استغناؤه عن فرضية الماوراء والغيب، وحرصه على بلورة تفسير يتوخى النّزاهة الموضوعية وتجرده من العاطفة والهوى. لكن في الحقيقة، في رأي نيتشه عكس هذا تماما إذ أن العلم الحديث امتدادا للدين، فإنه تجلّ لنفس المثال القديم الذي يحكم الدين، يقول بصدد ذلك: " لنتفحّص تلك الحالات الاستثنائية التي تحدث عنها أحيانا، عن أولئك المثاليين المتأخرين الذين نجدهم بين الفلاسفة والعلماء: فهل نحن واجدون بينهم خصوما لهذا المثال، يجيب نيتشه: "...ذلك أن هذا المثال هو أيضا مثالهم"(نيتشه، 1981، ص144-145)

إن العلم في اللّحظة الراهنة من تطوره محتاج بدوره إلى مثل أعلى، وإلى إرادة قوة يقوم على خدمتها لتمنحه الثّقة في ذاته من جديد ، "ولا يزال العلم الحديث بعيدا عن الاستقلالية التي تمكنه من الاضطلاع بهذه المهمة، لأنه هو نفسه بحاجة إلى قيمة مثلى، إلى قدرة مبدعة للمثل يقوم على خدمتها، وتمنحه الايمان بذاته لأنه لا يطلق بذاته أية قيمة، وعلاقاته مع المثل الزهدي لا تتصف بالتناحر لهذا المثال، مما يجعل منهما حليفين بالضرورة، بحيث أننا لو افترضنا مناهضتهما ومكافحتهما، فإن الصراع لا يمكن له أن يتم إلاضدهما معا. فلو سعى المرء إلى تقديره، فإنّه مسوق بالضرورة إلى تقدير قيمة العلم"(نيتشه، 1981، ص25)

لم تكن علاقة العلم بالمثل الأعلى الزهدي (أي اللاّهوت)، علاقة مجابهة، بل كانت بمثابة القوة، والرافد الأساسي لتطور العلم، وحتى حدث أن دخل في صراع أو مقاومة له، فهو لا يقاوم المثل ذاته بل مجرد انجازاته المتقدمة، وطريقته في ابراز لعبته، وإخفائها، وكذا صرامته وصلابته. وهذا ما يجعلهما يقفان على ذات الأرضية كحليفين متآزرين. بل أكثر من ذلك، فالعلم الحديث هو خير عون

للمثل الأعلى الزهدي، فانتصاراته لم تكن هزيمة له، بل قوّت شوكته وصلبت عوده.

إن العلم يقوم على نفس الأسس التي يقوم علىها المثال الزهدي من الناحية الفيزيولوجية، فكلاهما يفترض ضربا من افتقار الطاقة الحياتية، هكذا يجد الإنسان نفسه إمّا في حالة فتور في العواطف والأهواء، وأمام نفس التباطؤ في المشية ، والوقار يطبع بصماته على الوجه و الحركات.

3.3. نقد نيتشه مبادئ التفسير الميكانيكي

قام التصور الميكانيكي للعالم مثلما جرى الفهم في عهد نيتشه (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) على مفاهيم كونية مثل الذرة والمادة ، وعلى إثبات آليات شأن الاحصاء، وعلى قوانين، مثل قانون الجاذبية، مثلا منها ذرات أو مادة تتفاعل فيها عن طريق الحركة في إطار الزمان والمكان، وهذا التفاعل تحكمه قوانين (سببية، جاذبية...) .إن هذا التجانس ما كان ليدل عنده إلا على الصرامة العلمية، والدقة الإحصائية، والضبط الرياضي، وإن ما نكاد نلمس في لغته أن هذا العمل أشبه ما يكون بفعل الدمّى الخشبية أو بخيال الظّل حيث كلّ شيء وهميّ (محمد،2008،ص308). يقول نيتشه في هذا الصدد في كتابه "العلم المرح" في تعريفه للتأويل الميكانيكي: " تقصدون بطريقة إوالية إجمالا؟ الذي لا يقبل غير العدد، الحساب، النظر والفهم، فهذا ليس إلاّ بلاهة وسذاجة حين لا يكون استلابا وقماتة. أليس محتملا جدا، وبالمقابل أن يكون ما هو سطحي وخارجي في الوجود؟ إن تفسيرا "علميا" للعالم مثلما تقصدونه أنتم سيبقى بالتالي واحدا من أبلد التفسيرات، أي واحد من أفقرها من حيث المعاني، من بين كل التفسيرات الممكن تصورها: نهمس هذا في آذان الأواليين ونشعرهم به، وهم الذين يختلطون اليوم بالفلاسفة عن طيب خاطر، ويعتقدون بشكل مطلق أن الإوالية

ستكون عقيدة القوانين الأولى والأخيرة التي يجب أن يبنى عليها كلّ وجود، لكن عالما إواليا بالأساس سيكون عالما عبثيا بالأساس."(نيتشه،1993، ص241)

هكذا، لم يكتفي إذن بإبراز أن التّصور الميكانيكي للعالم أهم التأويلات الموجودة في الطبيعة، وأكثرها انتصارا الذي طبع العلم الحديث، بل إنه قام من جهة أخرى بنقد هذا التفسير وأعتبره من أبلد التفسيرات. لذا نقد أهم فروض هذا التفسير، بدءا من مفاهيمها الإجرائية كالحركة التي تختزل فيها عالما ذريا، عدديا، ومكانا، وزمانا إلى غاية مفاهيمها التنظيمية من قانون وضرورة وسببّية، وتساوي الكمّيات.

1.3.3. نقد مفهوم الحركة

يعد مفهوم "الحركة" كمقولة علمية من بين الدّعائم الرئيسية التي قام عليها التّفسير الميكانيكي، على حدّ تعبير نيتشه " الميكانيكا هو علم الحركة". وبذلك تسعى إلى صياغة متتاليات للظواهر في شكل علامات بفضل وسائل تعبير حسّية ونفسية"(نورالدين ،2005، ص264). وبالتالي، فهي قائمة تفسير السيكولوجي "ما من فعل إلاّ وراءه فعل"، ومستند إلى المبدأ اللغوي لذا فما الحركة سوى رمزية Symbolisme ذلك أنها موجهة للعين، وبما أن الحركة دوما تبحث عن متحرك، والمتحرك هو "الذرة" فهي أيضا إزاء حكم مسبق ثان طبيعة نفسية. يقول في ذلك: " فمفهوم الذرة (...من لغة الحواس) ومفهوم الذرة تساوي (الوحدة، مستمدة من تجاربنا النّفسية) فهذا العالم هو مسلمات كحكم مسبق لحواسنا وحكم مسبق نفسي."(Nietzsche,1948,p310)

إن الذرة إذن، كما يؤكدها محمد الشيخ " إنشاء" ذهني قائم على وهم سيكولوجي حقيقته إنه وهم "الذات" "بالذات" فكما يتوهم الإنسان أنه يحمل في ذاته وحدة. كذلك يسقط هذه الوحدة وينزلها على العالم الخارجي فيجعله "موحدا" مثله، أي مكونا من ذرات متجانسة (محمد ،2008،ص309). إذ

استعرنا مفهومنا عن "الأنا" واستقيناه منه: أي من أقدم عقيدة، آمنا بها، ولو لم نتوهم أنفسنا وحدات ما تمكنا أبدا من أن نشكل الشيء، يعني مفهوم الذرة .

2.3.3. نقد مفهوم السببية

يرى نيتشه أن الاعتقاد في مبدأ السّببية هو نتاج مفهوم "الذّات" حيث يعود الاعتقاد فيها إلى الاعتقاد بأني من يفعل، وإلى التمييز بين "الروح" وفعاليتها، ومن ثم تكون السّببية حكما مسبقا قديما.(نورالدين،2005، ص265).

3.3.3. نقد مفهومي "القانون" و"الضرورة"

إن سفاهة مفهوم " السّببية" تقودنا بالضرورة إلى مفاهيم أخرى بنيت عليها شأن مفهوم "القانون" ومفهوم "الضرورة" فهما حسب نيتشه مفهومان وهميان تقتضيهما إرادة جعل العالم بسيطا.

فالضرورة إن حق أمرها وجد أنه "فرض على العالم قسرا باطلا والقانون فرض عليه حرية باطل ". يرى أن القانون لا وجود له على الحقيقة وحتّ "الضرورة"، التي تقرّ أنّ شيئا ما يحدث حدوثا منتظما، وبفائدته يمكن التنبؤ، لا تفيد بالضرورة أنه ثمة ضرورة، وإنما هي تأويل ندخله في قلب الوقائع، معنى هذا أنّ الإنسان مقياس كل الأشياء المتجمدة المتصلبة. وأنّ القوانين لا تعني شيئا، وما الاعتقاد في أنّ الطبيعة تخضع لقوانين سوى تأويل إنساني. فليس ثمّة في الطبيعة سوى علاقات قوة تكمن ماهيتها في ممارستها ومقدرتها على كل القوى الأخرى. يقول نيتشه في صدد ذلك: "لحركة، فما هو ظاهري... ومفهوم العدد، ومفهوم الأشياء، ومفهوم الحركة فلا يزال بصرنا وعلم نفسنا بالداخل، لنقص هذه الإضافات فإنه لن تبقى"أشياء" بل كوانطات قوة دينامية في علاقة توتر مع كل الكوانطات الدينامية الأخرى."(Nietzsche,1948,p311)

من كل ما تقدم، يؤّكد أن نقده للتّصور الميكانيكي على ثلاثة أصعدة هي التالية:

أولها: أن الميكانيكا ما هي إلا سميوطيقا، وليست وصفا للواقع فما تدركه الميكانيكا هي آثار العلاقة الخفية بين الكوانطات، إنها لا تدرك سوى سيميوطيقا النتائج.

ثانيها: أن الميكانيكا بأكملها علم الحركة، فما هي إلا "فرضية" مؤسسة على " أثر الرؤية".

ثالثها: أن العلم الميكانيكي غير قادر على إدراك ما هو أساسي في الحياة بما هو إرادة القوة، يقول في

ذلك :"إن مفهوم القوة الظافر، هذا الذي خلق بفضله فيزيائيون الإله والعالم، مازال في حاجة إلى مكمّل: يجب أن نمنحه بعدا باطنيا أسميه إرادة القوة""(نورالدين ،2005، ص267).

4. تآزر الفلسفة والفن: من أجل قيام علم مرح

قد نحكم على نيتشه أنه معاد للعلم، ولفكرة تأسيس فهم علمي للعالم، يحدد طبيعته من خلال عقلنة إنسانيته له. باعتبار أن العقل وظف كجهاز أساسي يدعي البداهة واليقين، كمفاهيم العلية، والتطابق، والتماثل. لكنه في حقيقة الأمر ليس معاديا للعلم، بل يدعو إلى التحكم فيه فلسفيا. إذ يقول في مؤلفه " كتاب الفيلسوف": " لا يتعلق الأمر بهدم العلم بل التحكم فيه، لأن العلم في الحقيقة ، وفي غاياته، ومناهجه في تبعية مطلقة لرؤى الفلسفة. ينبغي على الفلسفة المهيمنة أن تفكر من جهتها، وفي هذا الإشكال.إلى أيّ حد يحق للعلم أن يتطور، على الفلسفة أن تحدد القيمة؟"(Nietzsche,1948,p7) ، لكن لما الفلسفة بالضبط هي الكفيلة بالتحكم في العلم، و تحدد له القيمة؟ وأية فلسفة يقصدها نيتشه للقيام بهذه المهمة؟ يعترف في مؤلفه "ما وراء الخير والشر"، أنه حان الأوان لتبديل الرّتب بين الفلسفة والعلم فبعدما كانت الفلسفة هي المشرّعة الوحيدة، والمقيّمة للأشياء انقلبت المعادلة حينما تمكن العلم من النّجاة ببراعة

من اللاّهوت الذي ظلّ خادما له لفترة طويلة أصبح اليوم يطمح بكل بطره وحمقه أن يكون مشرّعا للفلسفة، ليلعب دور السيد أو دور الفيلسوف.

أصبح العلم الحديث جهدا متواصلا لترويض الحياة، وتقييدها بواسطة وسائل الملاحظة، والتّحليل، والقيس، والتّجارب بهذه الرؤية قد أسدى ضربة قاسية للفلسفة، لذا يفترض نيتشه العمل على مكافحة هذا الدّاء لأنه يعلي من غريزة المعرفة على حساب غريزة الحياة. السّبيل الوحيد لذلك، ليس بهدم العلم، ورفضه بل بترشيده والتّحكم في غريزة المعرفة من خلال الفلسفة الجديدة فهي القادرة على خلق قيم، أما العلم – كما يرى فنك أويغن- في جوهره النّقد يقصد به نقد الأخلاق ، والدّين، والفلسفة. (أويغن،1974، ص116).

إن الفلسفة بهذا التّصور الجديد هي التي تخلق قيمة العلم ذاته، الفلسفة التي تردّ المعرفة إلى مجراها الحقيقي، يجعلها عنصرا وثيق الارتباط بالحياة، وتجعل للعلم بمناهجه، وروحه النقدية، قيمة أكبر إذا ما قبل بشهادة الحواس. ذلك هو الطّريق الذي يرسمه فيلسوف الظاهرة للعلم، أنه يحدّد له وظيفته انطلاقا من وعيه للحياة، ولغرائز الجسد، لأنه لا يمكن اختزال تعدد قوى الحياة، والبحث في مفاهيم منطقية عقلية، وفي مفهوم واحد.

إن العلم لا يبلغ مرتبة "العلم المرح" إلا عندما ينصت إلى صوت الفلسفة، وبالتالي إلى صوت الفن، لأنّ فلسفة الظهيرة هي التي تشرع لرؤية فنية للحياة، لذا يجب ترويض العلم بواسطة الفن.(نورالدين،2005، ص270) إذ يشير إليه بلفظة الضحكة الساخرة. يقول في ذلك:" يستطيع العلم، وبشكل متزايد أن ينير تاريخ نشأة العلم كتمثل، وأن يرفعنا ولو لبعض لحظات فوق تسلسل أحداثه... إن الواقع المطلق يستحق ضحكة ساخرة، والضحكة الساخرة هي التي تمكننا من تحمل أخطاء، وأوهام العلم".(أويغن،1974، ص117)

إن الجينيالوجيا النيتشوية تثبت لنا ضرورة إطراح موازين الإنسان المقوّم، واستبدالها بالميزان الجمالي، وأنّ التّقويم المعرفي قد أفلس مثله مثل التّقويمات الأخرى الأخلاقية، والدينية. كما أنّه ما من حكم تعقل إلا وبالفعل الجمالي مرافقته، وما من حاسة من حواس المعرفة إلا وتقوم بدور جمالي فنيّ فالذّهن نتاج لجهاز كان في الأصل جماليا. يظهر هذا النّسخ أيضا في علاقة الإنسان بالعالم أي علاقة الذات بالموضوع،وبالتعبير الكلاسيكي، حيث تبيّن كل صفة من صفات هذه العلاقة حسب جياني فاتيمو، أنه خلف الإنسان الناظر يقف دائما الأنسان الفنان، وأن الإنسان العلمي تابع للإنسان الفني(Vattimo,1991,p44) فالإنسان الفنان الذي ينسج علاقات، وينحت مفاهيم، ويرسم أشكالا، ويتخيل صورا، واستعارات، ومجازات عادية، وبليغة متواصلة، ودائمة التجديد. فهذه القوة الفنية هي التي تعمل في صلب الإنسان بما هي "تشكيل" و"توهيم" نازع فني دائم الاشتغال في قلب نازع المعرفة ذاته.

فثمة إذا، النّازع نفسه –النّازع الجمالي- الذي يدفع الفنان إلى رسم الطّبيعة، ويدفع الإنسان إلى تصوير ذاته في صلته بالطبيعة بصورة الصورة. وإذا أمعنا النظر في " النّازع الجمالي" وأثره في عملية المعرفة لأمكننا أن نقول فيه: أنّه لكي يتسنى لنا أن نحيا، فإننا نحتاج إلى الفن(Vattimo,1991,p44). فجارحة العين أبدا مشدودة إلى الأشكال، وجارحة الأذن متعلقة بالإيقاعات، وإنما للإبداع قوة فنية. ومعنى هذا، أنّنا في حاجة أكثر ممّا نحن في حاجة إلى المعرفة.

فمن هذا المنطلق، لو قمنا بنزع الغشاوة عن قيم المعرفة لوجدناها في الأصل قيما جمالية، لأنه ما يقرن الشيء الجميل هو بالأمر الحيوي، لذا يعتبر "النازع الجمال" الأكثر شفافية، والذي من خلاله نبدأ النظر إلى قيم المعرفة. يوضح نيتشه موقفه هذا في مؤلفه "كتاب الفيلسوف" قائلا: " العلم ممتن للفن"(Vattimo,1991,p43) وحتى الفيلسوف بحاجة إليه، وذلك لتصويب

نقده للميتافيزيقا، يعتمد على الفن كاستراتيجية لقلب الميتافيزيقا، والانتقال من إرادة النّفي إلى إرادة التأكيد، ومن ثمّة إثبات مفارقات الحياة، وتناقضاتها، وتحويلها إلى ظاهرة استطيقية، تعبر عن الروح، والإحساس السامي لدى الإنسان، ومنه يؤكد أن الاشتغال الفلسفي بالتجربة الأصلية التي يكشف عنها، هو من سيحرر الروح الديونيزية للخلق ، والإبداع. ومن جهة أخرى، فإن حاجة نيتشه للفن لتصويب نقده لعدمية العلم الحديث الذي غالى في غريزة المعرفة، فقوضت الحياة، وسممتها، وذلك للانتقال من إرادة النّفي إلى إرادة التّأكيد لذا فما علينا إلا ترويض العلم بالفن، وأن يتّخذه عونا له.

إن الإقرار بتكامل العلم والفن لتحمل أخطاء العلم، هو ما يميز أيضا التصور النيتشوي للعالم عن التصور الوضعي. إذ ترى الوضعية أن القوانين العلمية حقائق موضوعية، إذ يرفض اعتبار هذه النزعة نموذجا قادرا على تحديد غايات العلم، لأنها تدعو إلى التّطابق بين الحقائق العلمية والواقع، في حين أن حقائق العلم أوهام ضرورية للحياة .لذا تكمن مهمة الفن عند نيتشه في الحدّ من تضخّم غرائز المعرفة، وبترشيد العلم إلا أنّه يدعو إلى نوع خاص من الفن الذي يكون عونا للعلم، ويخلصنا من غرائز المعرفة، وليس هذا الفن الحديث، ولا الفن الفاجنيري، وانما الفن الديونيزي، الذي يبحث عن الحياة في كمالها دون نفي ما هو قاس، وفظيع. يقول بصدد ذلك: " إنه من الضروري أن نروح عن أنفسنا من حين لآخر لصالح الفن الذي يمكننا من تأمل أنفسنا من أعلى، وأن نضحك علاوة على ذلك من أنفسنا أو نبكي عليها، أن نكشف البطل، وكذلك البهلوان اللذين يختبئان في شغفنا للمعرفة (...) نحن في حاجة إلى كل فن مرح، طاف، راقص، ساخر، طفولي، وجدي."(نيتشه،1993، ص119)

الفن المرح هو الكفيل الذي يمكنّنا من تحمل هذيان ، وأوهام العلم، وبثقته المفرطة في نظام العقل، والأشياء، وكراهيتها من جهة أخرى لجمال الحياة،

والصيرورة. إذ يخلص الوجود من القراءة العقلانية، وإعادة الاعتبار للظاهر، ومن ثقل التراتب النافي للحياة، والمقزم لها. وبالتالي، فالفن المرح (الديونيزسي) مثلما يرى جيل دولوز:

1- **فن حافز لإرادة القوة:** إن تصّور نيتشه للفن هو تصّور تراجيدي، فالفن مثير للإرادة، ومنشط لإرادة القوة، وهذا المعنى يفضح كل تصور إرتكاسي للفن، باعتباره لا يشفي، ولا يهدئ، ولا للتطهير أو تصعيد أخلاقي.

2- **الفن هو أعلى قوة للزائف:** إن الفن ضمن هذا المنظور أسمى قوة للوهم، فهو يعظّم العالم بوصفه خطأ، ويقدّس الكذب، ويجعل من إرادة الخداع مثلا أعلى. كما أن نشاط الحياة كقوة للزائف، هو خداع ، وتمويه، وإغواء، إذ يعمل الفن على اختراع أكاذيب ترفع الزائف (الوهم) إلى مرتبة الإثباتية العليا .

لذا يروم نيتشه تخليص الوجود من القراءة العقلانية على صيغة جمالية يفرضها كمخرج من سلطة الحقيقة ضمن إطار هذه الصبغة الجمالية لا يبقى على مفردات كالحقيقة والثبات. فعلى العكس من ذلك، تكون الصيرورة ، والتعدد، والحقيقة الديونيز وسية كرمز جمالي، وكتباشير لثقافة جديدة تقتضي عودة ديونيزوس الذي يعمل على بعث اللاعقلانية، والعفوية، والجمال في الوجود. من هذا المنطلق، فالعلم باعتباره وجها من وجوه المعرفة، فإذا ما استبعدناه عن الفن المرح فإنه يظل علما عدميا، لعدم تمكنه من إثبات الحياة في صيرورتها، لأنه لا يمكن أن يفسر الوجود الذي يتسم بصبغة جمالية، وجود مأساوي، فرح. لذا فما عليه إلاّ اتحاده مع الفن المرح الذي يمكننا –حسب تعبير نيتشه- من تأمل أنفسنا، ومعاناتنا من أعلى، وأن نضحك علاوة على ذلك، من أنفسنا، فهو يكتفي بإثبات الحياة بدلا من البحث عن تبريرها، فهو تراجيدي استمتاعا للآلام القابلة للتحكم، وعليه فإن علاقة الفن المرح بالعلم تتجلى في مظهرين هما التاليان:

أولا: العلاقة بينهما علاقة ضرورية، فالفن المرح ينظر إلى حقائق العلم بنظرة استمتاعية رغم أنها معبّرة عن أشياء مرعبة، لادعائها للوحدة ، والثبات، لكنه يجعلنا نتحمله، وأن ننظر إليها بنظرة جمالية.

ثانيا: اتحاد الفن المرح مع العلم، وذلك لترشيده يتجلى حسب المنظور النيتشوي العلم المرح، في علم يثبت الحياة، ويؤكدها في صيرورة، وكثرة.

العلم المرح، علم يتدارك النتائج الضارة، والخطيرة، ويحدّ من الأفكار البليدة، علم يؤمن بالظاهر، وإلى تجربة الحواس، علم الحركة، والصيرورة، تكون حقائقه ديونيزوسية، تعبر عن قوى التوكيد، توكيد الكثرة، وذلك لتحرر الإنسان من عبودية المثل الكبرى. وفي هذا السياق يعرفه فنك أويغن: " أن الفكر الحر معرفة تتّسم بالمرح، إنه العلم المرح وهو يفتقر إلى الجدية المتثاقلة المليئة بالآلهة، وقد غاب عنه إحكام المفاهيم، والمقابلة بطبيعة الموجود الخفية، وتبعث المرح فيه ريح تحرير الإنسان لنفسه من عبودية امتدت لآلاف السنين، وكان قد فرضها على نفسه حيال مثل عليا غريبة عنه في الظاهر""(أويغن،1974، ص59).

نمط العلم الذي ينادي به نيتشه على خلاف العلم العدمي، علم قوامه اللّعب، والمرح، والصيرورة، لا علم الثّبات، والقوانين التي تقتل الفكر، والحركة. علم ينسك سماء البشر ليطهرها من السّحب، ومن أوهام القوى، يقول في كتابه " العلم المرح":

ريح المستراد، طاردة الغيوم
موت الغم، طهارة السماء
لنرقص إذن بألف طريقة
لنسمي فننا حرا
لنسمي علمنا مرحا" (أويغن،1974، ص 263-264).

6.خاتمة

إن المشروع النيتشوي يتّسم بطابع نقدي واضح، وصريح، ويعتبر نقده للعلم الحديث كمجهود كرّسه لفهم النموذج الارتكاسي الملهم للفكر الغربي برمّته، وكيف استطاعت هذه القوى أن تنتصر على القوى الفاعلة، وأن تحسم السلطة لصالحها، وكيف أن ظاهرة الانحطاط التي منيت بها جميع القيم التي يحملها العصر الذي عاشه، إذ يصفه جسدا لا روحا. لذا لاستئصال هذا المرض ، لابد من إيجاد الأدوات الأكثر صلابة، وفعالية " المطرقة الهدامة" التي لم تصب العلم عن خطأ، وإنما لغرض تشخيص المرض الذي أصابه لترشيده، وتقويمه لإيجاد فعالية جديدة تبشر بعلم حقيقي يمكن أن يلج بالإنسانية إلى السعادة، والمقدرة علم ينتصر على القوى الارتكاسية ليسير مسار الحياة.

من هذا المنطلق، لم يطل نيتشه على العلم الحديث من زاوية انطولوجية دينية أو ميتافيزيقية بل أطلّ عليه من نافذة نقدية، ونظر إليه كأعراض للانحطاط، أو الوهن، ونماذج تريد أن تؤكد ذاتها، وتثبت وجودها. لذا فهو يسعى لتجاوز أسس العلم التي تحطّ من قيمة الحياة، لذا صكّ عملات جديدة لتكون المرشدة، والمقوّمة للعلم مبنية على أهمية الفلسفة والفن باعتبارهما شرطين لازمين للوجود، وذلك قصد إيجاد منبع استيتيقي جمالي للوجود كبديل للقراءة المنطقية، والعقلانية للعلم، ويفلت من منطق المفهوم، والسببية، والقانون، والحقيقة إلى مفاهيم تعتمد على التعددية، والصراع، والمنظورية، إلى فلسفة حياة مؤيد لها، وذلك لتغيير إرتكاسية العلم الحديث إلى علم حقيقي يثبت الحياة، ويعطيها معناها الحقيقي.

7. قائمة المصادر والمراجع

1. Friedrich Nietzsche,(1948), La volonté de puissance, trad. Geneviève Bianquis, tome 1, Gallimard, Paris, France.

2. نيتشه فريدريك،(2001)، إنسان مفرط في انسانيته، ترجمة محمد الناجي،ج 2، إفريقيا للشرق، المغرب.

3. نيتشه فريدريك، (1993)، العلم المرح، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا للشرق، المغرب.

4. أويغن فنك، (1974)، فلسفة نيتشه، ترجمة الياس بدوي، منشورات وزارة الثقافة والارشاد، دمشق، سوريا.

5. Jaspers Karl,(1950), Nietzsche, Introduction à sa philosophie, Trad. Henri Niel, Gallimard, Paris, France.

6. Friedrich Nietzsche,(1980),Aurore, trad. Julien Hervier, Sigma Gallimard, Paris, France.

7. نور الدين الشابي،(2005)، نيتشه نقد الحداثة، دار المعرفة للنشر، القيروان، تونس.

8. نيتشه فريدريك، (1981)، أصل الأخلاق وفصلها، تر حسن قبيسي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

9. نيتشه فريدريك،(2005)، هذا الإنسان، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار التنوير والطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

10. Morel Georges,(1971),Nietzsche, Introduction a une première lecture2,Analyse d’une maladie, Aubier Montagne, Paris, France.

11. Nietzsche Friedrich,(1899), Le crépuscule des idoles, Trad. Henri Albert, Dixième édition, Mercure de France, Paris.

12. محمد الشيخ،(2008)، نقد الحداثة في فكر نيتشه، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان.

13.Nietzsche Friedrich,(1948),le livre de philosophe,Trad. Geneviève Bianquis, , Gallimard, Paris, France.
14.Vattimo Gianni,(1991),Introduction a Nietzsche,trad. Fabienne Zanussi, De Boeck, Paris, France.